مجلة البحوث العلمية والدراسات الإسلامية
المجلد 16 العدد 4 (السداسي الثاني 2024)، ص. 165- 184

قضايا الفكر الإسلامي الحديث عند الغربيين الذين تحولوا إلى الإسلام
قضية التربية والتعليم عند محمد أسد نموذجا

Issues of modern Islamic Thought among Westerners who converted to Islam
The issue of education according to Muhammad Asad is an example

د. سعيد امختاري
المديرية الإقليمية بالناظور، المملكة المغربية
saidamakhtari77@gmail.com

تاريخ الارسال: 2023/10/05 تاريخ القبول: 2024/12/07 تاريخ النشر: 2024/12/31

ملخص:

تتواصل مشكلات التربية والتعليم في العالم الإسلامي، وتزداد التراجعات نحو الوراء عوض التقدم نحو الأمام، والمشكلة دائما في عدم الإبداع في التربية والتعليم من داخل أسس الحضارة الإسلامية، والاعتماد على تقليد ما عند الآخرين، فكان من المسلمين من قبل هذا التقليد تماما، وكان منهم من رفضه تماما، وكان هناك طرف ثالث يرى أن نأخذ من الحضارة الغربية المعاصرة ما يناسبنا، ونترك ما يخالف العقيدة الإسلامية وروح التشريع الإسلامي، ويبدو أن محمد أسد واحد من القائلين بهذا المنهج الوسط.

وقد اتبعنا في هذه الدراسة كلا من المنهج الوصفي والمنهج الاستقرائي والمنهج التحليلي، إذ نرى تكاملها ضروريا، ولذلك توصلنا من خلال هذه الدراسة إلى أن المتعلم المسلم إذا خضع لمنهج تربوي نابع من حضارته الإسلامية فإنه سيشعر بالاعتزاز بحضارته، ولكنه إذا طبقت عليه النظريات الغربية بفلسفتها وكل تفاصيلها فإن المتعلم حينئذ سينشأ محتقرا لذاته وحضارته، وهذا ما حدث في كثير من مناطق العالم الإسلامي.

الكلمات المفتاحية: محمد أسد، التعليم، الحضارة الإسلامية، الحضارة الغربية.

Abstract:

The problems of education continue in the Muslim world, and retreat is increasing rather than moving forward. The problem is always the lack of creativity in education from within the foundations of Islamic civilization and relying on a tradition of others, he was a Muslim by that tradition. And there was a third party who thought we could take from contemporary Western civilization what suited us. And we leave what is contrary to the Islamic faith and the spirit of Islamic legislation, and Mohammed Asad seems to be one of the proponents of this middle course. In this study, we have followed both the descriptive curriculum, the inductive curriculum and the analytical curriculum. As we see its complementarity as necessary, we have concluded through this study that if a Muslim learner undergoes an educational curriculum emanating from his Islamic civilization, he/she will feel proud of his/her civilization. But if Western theories are applied to him with their philosophy and all their details, then the learner will develop contempt for himself and his civilization, which has happened in many regions of the Muslim world.

Key words: Muhammad Asad, education, Islamic civilization, Western civilization.

مقدمة

لا يلوح في الأفق القريب خروج الأمة الإسلامية من مأزق ضعف التربية والتعليم، وهذه رؤية على العموم، وإن كنا لا نستبعد أن تكون هناك استثناءات، ولكنها مشكلة تتسبب في مشاكل أخرى، وواضح أن كل الحضارات قديما وحديثا ما قامت إلا على العلم والمعرفة والتربية والتعليم، والأمة الإسلامية عاشت قرونا من الازدهار والقوة والفتوة لما كانت تنطلق من العلم والتربية والتعليم، وربما يمكن القول: إن أفق الخروج من أزمة التربية والتعليم في كثير من البلاد العربية مرتبط بأفق آخر هو أفق الخروج من التبعية القاتلة للعالم الغربي، بكل فلسفاته التي لا تناسب روح الشريعة الإسلامية ومقومات عقيدة التوحيد.

ولقد تناول هذه القضية مفكرون كثيرون، غير أننا نعتقد أن بعض الدراسات وتوجهاتها الفكرية مهما كثر حول التربية والتعليم فلا تزيده إلا ضعفا، تلك الدراسات المنطلقة من مقومات حضارة غير الحضارة الإسلامية، فكثرتها في نظرنا إنما هي كثرة الدعوات إلى الاستمرار على التبعية والتبعية لا تصنع الانطلاقة الحضارية الإيجابية. وكان من المفكرين الخبراء في الفكر الغربي والإسلامي معا محمد أسد فارتأينا تخصيصه بهذا المقال.

أهمية البحث:

تندرج أهمية هذا البحث ضمن الأهمية الكبرى التي يحظى بها مجال التربية والتعليم، إذ هو العمود الفقري للحضارة وتطورها وقوتها، فالبصر بالمشكلات التي تتعلق بهذا المجال كفيل بأن يتبين طرق العلاج بعدما تبين طرق الملاحظة والتشخيص، كما تكمن أهمية هذا البحث أيضا في كونها حول شخصية من أهم شخصيات الفكر الإنساني في العالم الغربي والعالم الإسلامي، وهو محمد أسد الذي إذا تحدث عن الفكر الغربي فهو واحد من أقطابه، وإذا تحدث عن الفكر الإسلامي، فقد تشبع به بعد دراسة عميقة، ولم يتحدث في هذا الفكر إلا بعد أن ترسخ في وعيه بكامل حريته وقوته الذهنية والعقلية، فكانت ملاحظاته وتوجهاته ونصائحه للعالم الإسلامي منطلقة من أرض صلبة قوية جدا.

وإن مفكرا كبيرا بهذه الأهمية، إضافة إلى ما له من كتابات عميقة حول العالم الإسلامي، وكذا الفكر الإسلامي، بمختلف قضاياه السياسية والأخلاقية والتربوية لهو جدير بأن تخصص له دراسة تفي بحقه، وتعترف بفضله، وتقدم له بعض الشكر وتعترف له ببعض الجميل.

إشكالية البحث

تنبني إشكالية هذا البحث على صعوبة الموقف الذي يعيشه ميدان التعليم في العالم الإسلامي، فهو ما يزال يتخبط في تناقضات وتراجعات نحو الوراء عكس أن يتقدم نحو الأمام، فقد أوشك الناظر في حال التعاليم في بلادنا العربية الإسلامي أن يقول إن ماضي التعليم عندنا خير من حاضره على الأقل، إن لم يكن خير من مستقبله كذلك ما دام متخبطا في هذه التناقضات التي تنبعث من كونه يستمد برامجه من الغرب لتسري على شعوب تنتمي إلى سياق حضاري مخالف تماما؛ عقيدة ولغة وتاريخا وعادات وتقاليد.

وقد تناول هذه القضية عدد من المفكرين، أصاب بعضهم وأخطأ بعضهم كذلك، وربما نجد من يتقن الفكر الإسلامي والعربي ولكنه غير متمكن من الفكر الغربي، أو نجد عكسه تماما مفكرا ذا خبرة بالفكر الغربي لكنه غير راسخ القدم في الفكر الإسلامي، وربما يحق لنا إن نقول إن الفيلسوف "محمد أسد" واحد ممن ترسخت قدمهم في الفكرين معا، وهو واحد ممن يسلكون الطريق الصحيح نحو حل هذه المشكلة العويصة.

أهداف البحث: يتوخى هذا البحث الوصول إلى بعض الأهداف التي منها:

_ حسن تشخيص المشكلة المتعلقة بالتعليم من خلا نظرة كبار المفكرين والفلاسفة في العصر الحديث.

_ الوقوف على أهم الحلول المقترحة من أجل الخروج من أزمة التعليم في بلادنا العربية الإسلامية.

_ التعريف بجزء مهم جدا من الفكر التربوي الناضج، والذي هو مبثوث في بعض الكتب التي يعتقد أنها بعيدة عن الفكر التربوي والتعليمي، كما هو الحال بالنسبة لكتب محمد أسد.

الدراسات السابقة في الموضوع

لم أستطع الوقوف على مقال محكم يتعلق بالفكر التربوي عند محمد أسد، غير أنني وجدت أحد الباحثين كتب كتابا جيدا حول محمد أسد، وهذا الباحث هو صفوت مصطفى خليلوفيتش، في كتابه: الإسلام والغرب- رؤية محمد أسد، ترجمه من البوسنية إلى الإنجليزية: محمد باشانيجوفتش، وترجمه من الإنجليزية إلى العربية: الدكتورة هدير أبو النجا، القاهرة، دار السلام، ط.1، 2007. وأشار فيه إلى بعض القضايا التي تتعلق بالفكر التربوي عند محمد أسد، لكنني زدت عليه بعض المسائل المهمة التي لاحظها القارئ إذا قارن بين هذا الكتاب القيم، وبين مقالنا المتواضع هذا.

خطة البحث:

سلكت في هذا البحث خطة ضمنتها العناصر الآتية:

مقدمة، وقد تضمنت أهمية البحث وإشكاليته، وأهدافه، والدراسات السابقة فيه، وكذلك منهجه.

المبحث الأول: حول محمد أسد والتعليم في العالم الإسلامي.
المبحث الثاني: سياسة الدولة والتعليم الجيد.
المبحث الثالث: الأثر الغربي في أزمة التعليم لدى المسلمين.
المبحث الرابع: هل يدعو محمد أسد إلى القطيعة الكاملة مع الحضارة الغربية وعلومها؟
المبحث الخامس: الأثر الفلسفي الغربي في التعليم المستورد.

منهج البحث

اتبعت في هذا البحث كلا من المنهج الوصفي والمنهج الاستقرائي، والمنهج التحليلي، وهذه المناج تتكامل في هذا البحث، بحيث لا بد من استقراء كل ما كتبه محمد أسد للبحث عما يتعلق بالفكر التربوي، ثم التعليق عليها بما يناسبها مع تحليلها كذلك، كما حاولت بعد ذلك تصنيف مادة هذه البحث، ولعلي أكون موفقا في ذلك بإذن الله.

المبحث الأول: حول محمد أسد والتعليم في العالم الإسلامي

محمد أسد رجل متعلم طلعة، تواق إلى المعرفة، عرف لذة التعليم منذ صغره، وعرف التفوق والنبوغ في التعلم منذ نعومة أظفاره، وهو يروي المراحل المهمة من تكوينه العلمي في كتابه: "الطريق إلى مكة" فتبين أن تعليمه كان قويا وأن بحثه عن الحقيقة كان ديدنه منذ صغره. ولما أسلم وحسن إسلامه، أفرغ تلك الطاقة المتوقدة في خدمة الأمة الإسلامية، وبما أنه رجل حضارة في الغرب أولا، وفي الإسلام ثانيا، فإنه لا يتناول القضايا المهمة إلا في أعلى مستوياتها، إنه لا ينظر إلى الأشياء إلا من زاوية الرسالة العظمى التي تؤديها.

لقد جمع محمد أسد بين التبحر في الفكر الغربي، والاطلاع الجيد على الفكر الإسلامين لذلك كان يرى نفسه جديرا بالقيام بمهمة تصحيح الوعي بدين الإسلام وعلاقته بالحضارة الغربية، سواء بين أفراد العالم الغربي أم العالم الإسلامي، وهو الذي يقول: "ولكن كم من الرجال بمقدورهم الحديث إلى المواطن الغربي بمعطياته العقلية كما يمكنني أنا؟ أنا مسلم إلا أنني انتمي إلى الغرب، وبذلك يمكنني أن أتكلم بلغة واعية مفهومة للمسلمين ولأهل الغرب..."[1].

ولقد جاء محمد أسد إلى المسلمين يعايشهم ويعاشرهم ويكتشفهم، فوجد أحوالهم على غير ما يزخر به دينهم من مقومات التحضر والتقدم والرقي، فالأحوال السياسية كانت في غاية التشتت، وكذلك الاقتصاد والثقافة، وكل شيء. ثم لاحظ كما لاحظ غيره أن أكبر السر في ذلك انبهار النخبة التي تسعى نحو امتلاك مقاليد الأمور بالثقافة الغربية الغازية للعقول بكل تفاصيلها، كما لا حظ أن هذه الثقافة الوافدة الغازية، جاءت إلى عالمنا مشحونة بالروح الصليبية التي ما فتئ أرباب الكنائس يزرعونها في أبناء الشعوب الغربية.

لقد شارك محمد أسد في الإصلاح السياسي مع المسلمين فعمل رئيسا لدائرة "إحياء النظم الإسلامية" كما كان له مقترح في "بناء الدستور الإسلامي" ثم ألف بعد ذلك كتابه المعروف: منهاج الإسلام في الحكم، بين فيه مدى حاجة المسلمين إلى دولة إسلامية تنفتح على التطورات المعاصرة، وتتمسك في نفس الوقت بمصادر تشريعها.

[1] محمد أسد، الطريق إلى مكة، ترجمة رفعت السيد علي، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1425هـ. ص: 41.

ومن المجالات التي أثارت انتباه محمد أسد، مجال التربية والتعليم، فالتعليم عصب الحياة المعنوية للأمة، متى استقام واتخذ المسار الصحيح تفوقت الأمة وتقدمت، ومتى تعثر وانهار تعثرت الأمة وتخلفت، وعاشت حياة مضطربة.

إن التعليم الذي لا ينبثق من المرجعية العليا لأمة من الأمم، لا يمكن أبدا أن يقدم لأفراد هذه الأمة شيئا، بل ستبقى هذه الأمة سائرة نحو الضعف والتخلف والتبعية، وسيكون حالها كما قال محمد أسد: "ما دام المسلمون مصرين على النظر إلى المدنية الغربية على أنها القوة الوحيدة لإحياء الحضارة الإسلامية الراكدة، فإنهم يدخلون الضعف على ثقتهم بأنفسهم"[1].

إنه لمن الحكمة أن يعتد بآراء كثير من العلماء والمفكرين الغربيين الذين أسلموا وحسن إسلامهم، لأنهم يجمعون في وعيهم ثقافات متعددة، وإسلامهم يقوم ثقافتهم ويصقل تجاربهم فينتجون من ذلك فكرا نيرا متوقدا، هو فكر إنساني يقبل تارة ويناقش تارة أخرى، ولكنه يبقى مع ذلك فكرا ينفع الأمة الإسلامية وجهدا كبيرا يضاف إلى جهودها.

إن التعرض لفكر رجل في منزلة محمد أسد، لهو من أجل أساليب التنويه به وبخدمته لدين الإسلام، إذ قد أحسن في كثير من آرائه، وناقشه أهل العلم في بعض آرائه الأخرى، وهذا طبيعي، فلا عصمة لرجل بعد رسول الله محمد ﷺ، وأنبياء الله جميعا عليهم أفضل الصلاة والسلام.

[1] محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: الدكتور عمر فروخ، دار العلم للملايين، دون معلومات أخرى للطبع.، ص: 69.

المبحث الثاني: سياسة الدولة والتعليم الجيد

لا يمكن عزل المواطن عن إبداء رأيه في الحالة السياسية القائمة في بلده، فإن لم يظهره خوفا، أو انتظارا لوقته المناسب، فلا يعني هذا أن المواطن لم يعد يشغله الوضع السياسي في الدولة، لمن هذا الرأي لن يكون ذا آثار إيجابية إلا إذا صدر عن مواطن تلقى تعليما جيدا، لذلك كان من الحكمة أن يقرن كثير من العلماء في كتبهم قديما وحديثا بين السياسة والتعليم، ففي تراثنا الإسلامي نماذج كثيرة، وقد صنع ذلك شهاب الدين ابن أبي الربيع في كتابه سلوك المالك في تدبير الممالك، وصنع ذلك أبو حامد الغزالي في كتبه الكثيرة، وكذلك ابن الأزرق في كتابه: بدائع السلك في طبائع الملك، وابن خلدون في المقدمة، وغيرهم كثير، ويبدو لنا أنهم صنعوا ذلك لما ظهر لهم من العلاقة المتينة بين قيام الدول وإصلاح التعليم، من أجل تنشئة مواطن يساعد دولته كي ترقى وتتطور، وليس عكس ذلك.

وللتعليم حظ وافر في فكر محمد أسد، فهو لا يعزله عن رسالته المثالية في خدمة الدولة الإسلامية والحضارة الإسلامية في جميع مجالاتها، فهو يرى أن الحكومة الناجحة هي الحكومة التي تخضع لمراقبة المواطنين، الذين يفترض فيهم – من أجل القيام بهذه المهمة – أن يتمتعوا بحرية الرأي وحرية التعبير، ولكن نظرة محمد أسد هنا نظرة عميقة جدا، إذ لا تكون لحرية الرأي والتعبير قيمة فعالة حتى يصدر هذا الرأي عن عقل ناضج مدرك لحقائق الأمور، وإلا عاد ذلك بالضرر على كيان الدولة الإسلامية، فالدولة الإسلامية إذن أمام أمرين متلازمين:

- تتقوى وتنضج بآراء المواطنين
- لكن يجب عليها أن توجد لهم المستوى التعليمي والمعرفي الذي يؤهلهم لذلك.

ولا يفرق محمد أسد في هذا الواجب على الدولة، والحق للمواطنين بين الرجل والمرأة، وأحب هنا أن أنقل عنه نصا على طوله، لأنه يلخص نظرته إلى التعليم في البلاد الإسلامية، بحيث يقول في هذا الشأن : "**إن واجب المواطن وحقه في أن يراقب نشاط الحكومة بكل انتباه، لا يمكن أن يتما إلا بإفساح المجال لحرية الرأي وحرية التعبير عنها، وهما أمران كفلهما الإسلام لكل الراشدين من أفراد المجتمع. ولكن هذا الحق الذي يسمح للفرد بأن يعبر عن أفكاره بحرية تامة ليست له قيمة تذكر – ويكاد أن يكون ضارا بمصالح المجتمع – إذا لم تكن آراؤه منبثقة عن إدراك صحيح وتفكير سليم، وهما أمران لا يتحققان بدون**

توفر الثقافة الصحيحة لدى الفرد. وعلى هذا فإنه حق للمواطنين وواجب على الحكومة أن توجد نظاما للتعليم ييسر تحصيله على كل رجل وامرأة في البلاد...وعلى هذا فإن الدولة التي وجدت لتحقيق أهداف الإسلام وقامت على أساس أن تجعل الشريعة الإسلامية القانون السائد في البلاد، لابد أن تجعل التعليم لا ميسورا فقط، ولكن إجباريا على كل مسلم ومسلمة. ولما كان من الأهداف الأساسية لمثل هذه الدولة أن تيسر لرعاياها من غير المسلمين كل ضرورات الحياة، فإن التعليم كذلك لا بد أن يكون إجباريا وبالمجان لكل أفراد المجتمع بغض النظر عن معتقداتهم الدينية[1].

ومن خلال هذا النص نجد أن التعليم عند محمد أسد ليس أمرا واجبا على الدولة، واختياريا للمواطن، بل بقدر ما هو واجب على الدولة، فهو إجباري على كل مواطن ومواطنة، أي على كل رجل وامرأة، بل تعدى ذلك إلى أن يشمل برأيه حق المواطنين الذين يخالفون في الدين والمعتقد.

[1] محمد أسد، منهاج الإسلام في الحكم، ترجمة: منصور محمد ماضي، بيروت، دار العلم للملايين، ط.6، 1983.، ص: 153

المبحث الثالث: الأثر الغربي في أزمة التعليم لدى المسلمين

إن أزمة التعليم في العالم الإسلامي – حسب محمد أسد – كانت ضمن أزمة كبرى هي إصرار المسلمين على "النظر إلى المدنية الغربية على أنها القوة الوحيدة لإحياء الحضارة الإسلامية الراكدة" وهم بذلك يفعلون شيئا واحدا لا غير وهو أنهم "**يدخلون الضعف على ثقتهم بأنفسهم، ويدعمون بطريقة غير مباشرة ذلك الزعم العربي القائل بأن الإسلام جهد ضائع**"[1].

إن التربية التي تقوم على أسس غربية لا يمكن أن تبقى خالصة من شوائب النفوذ المعادي للإسلام، ذلك لأن الإسلام والمدنية الغربية يقومان على فكرتين في الحياة متناقضتين تماما، "**إن التنشئة الغربية لأحداث المسلمين ستفضي حتما إلى زعزعة إرادتهم في أن يعتقدوا أو ينظروا إلى أنفسهم على أنهم هم ممثلو الحضارة الإلهية الخاصة التي جاء بها الإسلام. وليس ثمة من ريب في أن العقيدة الدينية آخذة في الاضمحلال بسرعة بين المتنورين الذين نشأوا على أسس غربية**"[(2)].

إن الطفل حينما يخضع لتعليم قائم على أسس غربية فإن نتائجه ستكون وخيمة بطبيعة الحال، منها على سبيل المثال:

- ضعف روح الدين في كثير من بيوت المسلمين.
- إغراء الناشئين بأن يولوا الدين ظهورهم.
- يحمل الناشئين على اتخاذ موقف عدائي من دينهم.
- يحمل العقول الناشئة الغضة بطبيعة الحال على أن تتشرب روح المدنية الغربية بثقة. عمياء واندفاع كبير قبل أن يتاح لها أن تعرف النواحي السلبية فيها معرفة كافية.
- هذه التيارات الغربية في التعليم تحمل إلى المتعلم احتقار الإسلام.
- جعل المتعلم يشعر بالنقص المتزايد يوما بعد يوم.

---

[1] الإسلام على مفترق الطرق، ص: 69.

[2] نفس المرجع.

المبحث الرابع: هل يدعو محمد أسد إلى القطيعة الكاملة مع الحضارة الغربية وعلومها؟

إن محمد أسد ليس ضد الإنتاج العقلي للتفكير الإنساني، لذلك لا يدعو إلى القطيعة الكاملة مع التطور الفكري والعلمي في الغرب، وإنما يحث على الدقة والحكمة في الاستفادة من الغرب، وذلك لأن دين الإسلام لم يعارض أي علم في حد ذاته، أو باعتباره علما صرفا، فهو يقول مثلا:" **إن الاحتجاج على تعليم المسلمين تعليما غربيا لا يعني أبد أن الإسلام يعارض التعليم في حد ذاته**"[1].

ويقول أيضا:" **إن الإسلام لم يقف يوما ما سدا منيعا في وجه التقدم والعلم. إنه يقدر الجهود الفكرية في الإنسان إلى درجة يرفعه فيها فوق الملائكة...وإذا نحن عملنا بأركان هذا الدين فإننا لن نستطيع أن نهجر التعليم الحديث في حياتنا**"[2].

ويقول في موضع آخر: " **المعرفة نفسها ليست غربية ولا شرقية، إنها عامة بالمعنى الذي يجعل الحقائق الطبيعية عامة**"[3].

ولا يعارض محمد أسد تدريس العلوم التي توصل إليها الغرب، بل يحث على تعليمها، فهو يقول مثلا:" **ولو طلب إلي أن أقترح شيئا على لجنة تعليمية مثلى تسيرها الاعتبارات الإسلامية وحدها، لحثثت على أن تختار من جميع النتاج العقلي في الغرب العلوم الطبيعية والرياضيات، فنعلمها في المدارس الإسلامية**"[4].

وإذا كان الأمر كذلك فإننا سنذكر ما كان يعارضه محمد أسد في التعليم القائم على أسس غربية، إذ المعرفة في حد ذاتها ليست مشكلة، ولكن المشكلة في طريقة النظر إليها، فلنصغ إليه وهو يقول مرة أخرى: "**المعرفة نفسها ليست غربية ولا شرقية، إنها عامة بالمعنى الذي يجعل الحقائق الطبيعية عامة. إلا أن وجهة النظر التي ترى منها هذه الحقائق وتعرض تختلف باختلاف المزاج الثقافي في الشعوب. إن علم الحياة بما هو علم الحياة، والعلم الطبيعي وعلم النبات، بما هو كذلك، ليست كلها مادية ولا روحية في ما تقصد إليه، إنها تتعلق بملاحظة الحقائق وبجمعها وتحديدها ثم استخراج القواعد**

---

[1] المرجع السابق، ص: 71

[2] نفسه، ص: 72.

[3] نفسه، ص: 73.

[4] نفسه، ص: 75.

المعقولة منها. أما النتائج الاستقرائية التي نستخرجها من هذه العلوم المتعلقة بالمظاهر العامة في الحياة، أي فلسفة العلوم، فإنها لا تنبني على الحقائق والمشاهدة فقط ولكنه تتأثر إلى حد بعيد جدا بمزاجنا المتأصل فينا أو بموقفنا الحدسي من الحياة ومشاكلها[1].

المبحث الخامس: الأثر الفلسفي الغربي في التعليم المستورد

من المعروف أن العلوم تحمل الأثر الفلسفي والفكري للحضارة التي أنتجتها، لذلك يرى كثير من المفكرين أنه "يجب أن نميز بين التأمل الفكري والفلسفي، بل والأخلاقي والاجتماعي الذي قد يبنى على – أو يكون بوحي من – نتائج العلوم الطبيعية، وبين الموقف العقائدي الشامل الذي يكون سابقا للعمل البحثي ومهيمنا عليه"[(2)].

إن العلوم السائدة والمدرسة سواء في الجامعات الغربية أو جامعات الدول الإسلامية، تسري فيها روح الحضارة الغربية المتشبعة بالنظرة المادية إلى الكون والحياة وإلى تلك العلوم أيضا فالغرب "**بصرف النظر عن عقليته المثقفة إلى درجة قصوى، ذو استعداد مادي، وهو من أجل ذلك مناهض للدين في مدركاته، وفي افتراضاته، الأساسية. وكذلك نظام التربية الغربية على وجه العموم. وليست دراسة العلوم الحديثة التجريبية هي المضرة بالحقيقة الثقافية في الإسلام، وإنما المضر هو روح المدنية الغربية التي يقترب المسلم بها إلى تلك العلوم**[3].

إن خطر الشعور بالنقص والتخلف، يؤدي بالمسلمين في حالة من الوعي بخطورة الموقف إلى الشعور بأننا مضطرون إلى "**أن نتناول العلوم الحديثة عن طريق المجاري التعليمية في أوروبة، وهذا معناه أننا مقيدون بمادة العلم وبأسلوبه ليس إلا**"[(4)].

---

[1] السابق، ص: 73.

[2] محجوب عبيد طه، عقائد فلسفية خلف صياغة القوانين الطبيعية، مجلة المسلم المعاصر، ع.64، السنة 16، 1992، ص: 66

[3] الإسلام على مفترق الطرق ، ص: 74 .

[4] نفسه.

ومرة أخرى يؤكد محمد أسد على عدم الخلط بين العلم الأوروبي وفلسفته، وفي ذلك نجده يقول بصراحة تامة: "**وبكلمة أخرى يجب علينا ألا نتردد في درس العلوم الرياضية الطبيعية حسب الأسس الغربية، ولكن يجب ألا نتنازل للفلسفة الغربية عن أي دور من أدوار تنشئة أحداث المسلمين**"[1].

وكثير من الناس الذين استسلموا لقوة العلوم الغربية التي صبغت بفلسفة تلك الحضارة، حينما يسمعون هذا يظنون أنه من المستحيل الفصل بين العلم التجريبي والفلسفة النظرية، "**وهذا حق ولكن تلك هي النقطة التي يجب على الثقافة الإسلامية أن تثبت نفوذها عندها، وسيكون من واجب العلماء، ومن الفرص السانحة لهم ايضا، إذا وصلوا إلى حدود البحث العلمي، أن يستخدموا نظرهم العقلي مستقلين فيه عن النظريات الفلسفية الغربية، وإنهم من طريق اتجاههم العقلي الخاص- الإسلامي- قد يصلون على الأرجح إلى نتائج في المعقولات تختلف بعض الاختلاف من تلك التي وصل إليها العلماء الغربيون المحدثون**[2].

إن محمد أسد لم ييأس من يوم تصل فيه الأمة الإسلامية – بعد أن تستخدم قدراتها الخاصة – إلى إنتاج العلوم وصياغتها وفق نظرتها الفلسفية إلى العلم والحياة، إنه بهذا يستنهض الهمم في المسلمين كي يخرجوا من نفق الخضوع لاسترقاق الفكر الغربي، ويبشر محمد أسد المسلمين أنه "**من الممكن دائما أن ندرس العلوم وأن ندرسها من غير أن نخضع خضوعا يسترقنا للاتجاه العقلي في الغرب**[3].

والملاحظ هنا أن محمد أسد يذكر أنواع العلوم التي تدرس في جامعات البلدان الإسلامية، والروح الغربية التي تسري فيها فتتسرب إلى عقول المتعلمين، فينظرون من خلالها إلى الحياة نظرة غربية صرفة، ولقد مر بنا الحديث عن العلوم الطبيعية والرياضية، وتعرفنا على رأي محمد أسد فيها، ولكنه استطرد في ذكر علوم أخرى لا تقل خطرا عن العلوم التي تقدم ذكرها، إن هي صبغت أيضا بالصبغة الفلسفية الغربية.

---

[1] نفسه.

[2] نفسه.

[3] المرجع السابق. ص: 75.

وبهذه المناسبة ينظر محمد أسد إلى العلوم الأخرى كالفلسفة والتاريخ والأدب، فلا ينبغي أن تدرس من المنظور الغربي على الإطلاق، بل يجب أن لا تأخذ مكان الصدارة في المناهج الدراسية كما هو الحال اليوم. فالأسلوب الذي تعرض به هذه المواد يعتمد على المبالغة في إرساء المبادئ والقيم الغربية، بحيث تفتن بها عقول الشباب الغضة، وتتأثر بأسلوب الحياة وروح الحضارة الغربية دون الإدراك الكامل والواعي لسلبيات هذه الحضارة وأوجه القصور فيها.

ولا ينبغي أن نغفل أن منهجية تدريس الأدب الأوروبي في كثير من المعاهد الإسلامية، تعمل على تغريب الشباب المسلم عن دينه وعقيدته، وعلى مثل هذا النحو يتم تدريس تاريخ العالم وتحليله من منظور غربي ليحقق ذات الهدف.

ويرفع المنهج الغربي في تناول التاريخ نفس الشعار العنصري القديم الذي يقسم العالم إلى " الرومان والبرابرة"، فالأسلوب الذي يتم تناول التاريخ من خلاله يهدف إلى إعلاء قيمة الحضارة الغربية وإظهار تفوقها على ما سواها من الحضارات في العالم، وهذه نظرة تجعل كل ما يقدمه الغرب من مناهج وعلوم، أفضل من أي شيء يمكن أن يقدمه العالم كله.

وقد تعود الغرب منذ الدولة الرومانية على أن ينظر إلى الاختلافات بين الشرق والغرب من خلال المرجعيات والمحددات التي يضعها هو. ثم إن الفكر الغربي يعتمد على الاعتقاد بأن الحكم على تقدم الإنسانية وتطورها يمكن أن يكون من خلال التجربة الحضارية الأوروبية، وما من شك في أن هذه النزرة المحدودة والضيقة للأمور، والتي تعتمد على المرجعية القياسية الأوروبية تفرز مفاهيم مشوشة، وغير سوية يصعب معها إدراك الأبعاد الحقيقية للتاريخ"[1].

[1] صفوت مصطفى خليلوفيتش، الإسلام والغرب- رؤية محمد أسد، الدكتور ، ترجمه من البوسنية إلى الإنجليزية: محمد باشانيجوفتش، وترجمه من الإنجليزية إلى العربية: الدكتورة هدير أبو النجا، القاهرة، دار السلام، ط.1، 2007.، ص: 95.

ولكن رغم ذلك فإن: **" التأثير الوحيد الذي يمكن أن يتركه مثل هذا التثقيف التاريخي في عقول الأحداث عن غير الشعوب الأوروبية، إنما هو شعور هذه الشعوب بالنقص فيما يتعلق بثقافتهم الخاصة، وبماضيهم التاريخي الخاص، وبالفرص السانحة لهم في المستقبل. وهكذا يتربون تربية منظمة على احتقار ماضيهم ومستقبلهم، اللهم إلا إذا كان مستقبلا مستسلما للمثل العليا الغربية**[1].

وأمام هذا التحدي الخطير يرى محمد أسد أن كل ما نعانيه من الفقر والتأخر، لا يفعلان بنا ما يمكن أن يفعله ذلك التأثير المميت الذي سيحدثه تقليدنا الأعمى لنظام التعليم الغربي في قوى الإسلام الدينية الكامنة، ولا يقل هذا خطرا عن تقليد عادات الغرب وزيه في الحياة لأنه بذلك "**يصبح المسلمون تدريجيا مضطرين إلى الأخذ بوجهة النظر الغربية. إن تقليد المظاهر الخارجية يقود شيئا فشيئا إلى تقبل الميل العقلي المصاقب لذلك**"[2].

وفي هذا المقام يقول المستشرق جب: "فليس هناك طالب ذكي يقضي ثلاث أو أربع سنين في عاصمة أوربية مختلطا بأهلها كل يوم وقارئا ما يكتبون خيره وشره من غير أن يشرب في نفسه شيئا أكثر من قشور المدنية الغربية"[3].

فنحن نرى إذن أن المستشرقين أنفسهم يؤكدون على أن قشور الحضارة الغربية سريعة العدوى إلى الرعيل الأول ممن درسوا في الغرب وخالطوا الغربيين مخالطة تامة، ولكن هذه العدوى سرعن ما سينقلها هؤلاء الذين شكلوا الطلائع الأولى لعبور قشور هذه الحضارة إلى بلاد المسلمين ثم إلى مناهجهم التعليمية، وفي هذا يقول جب: "ثم عاد الطلبة أفرادا وبعوثا، لا بدراسات فنية فحسب، ولكن بجراثيم الأفكار السياسية، بل بجراثيم العادات الاجتماعية أحيانا – مما كان متضاربا مع تقاليدهم الموروثة- وقد كان الأثر في مجموعه ضعيفا في الجيل الأول، ولكنه تضاعف في الجيل الثاني، وظل يتضاعف باطراد،

---

[1] الإسلام على مفترق الطرق، ص: 77.

[2] السابق، ص: 79.

[3] جب. هـ. أ. ر. وجهة الإسلام نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي ، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، غفل من معلومات الطبع، ص: 35.

وربما فشلت حركة الإصلاح في أول هجومها على حصن السلطة المطلقة والتقاليد الإسلامية، ولكنها تركت مهمتها عن غير قصد إلى خصم أقوى وأشد عداء للتقاليد"[1].

ويلاحظ محمد اسد بفكره الثاقب أن الغرب في مرحلة من مراحله استفاد من علوم المسلمين، وأن "أوروبة تقبلت المؤثرات العربية فيما يتعلق بالعلم وأساليبه عن طيب خاطر، ولكنها لم تقبل المظهر الخارجي ولا روح الثقافة العربية قط ولم تضح استقلالها العقلي أو البديعي على الإطلاق. لقد اتخذت أوروبة من المؤثرات العربية سمادا لتربتها.."[2].

وهذا الذي قاله محمد أسد واضح كل الوضوح، فإذا جمعنا كل ما قاله الغربيون وغير الغربين حول أثر الحضارة العربية الإسلامية في الحضارة الغربية، نجد أن ذلك في الغالب جدا لم يتجاوز الاقتباس العلمي المنهجي، بينما ترك الغربيون الروح التوحيدية الإسلامية التي تسري في العلوم التي أخذوها من المسلمين، كما تركوا المظاهر والتقاليد والعادات الخارجية التي كانت سائدة بين المسلمين، فأخذوا علم ابن سينا والفارابي والكندي وابن رشد وغيرهم، لكنهم لم يأخذوا جلابيبهم ولا عمائمهم ولا وضوءهم ولا صلاتهم ولا حجاب نسائهم ولا أي شيء من ذلك، لأنهم انطلقوا منذ البداية من فكرة أن مبادئهم وروحهم الدينية والفلسفية – مهما كانت في نظرنا نحن المسلمين – فلا يمكن لهم أن يتخلوا عنها مهما كان الأمر، ونستطيع أن نقول –من خلال ما استفدناه من الدارسين- إن الغرب بعد الحروب الصليبية انطلق من فكرة أن دينه وثقافته وعاداته وتقاليده، كل ذلك يجب أن ينتصر على الإسلام، ذلك الدين الذي هزمهم أيام الحروب الصليبية. فلم يكن عندهم مانع من الأخذ بأسباب قوة المسلمين المتمثلة في العلوم المختلفة والمناهج العلمية المتنوعة، مع ترك العقيدة الدينية الداعية إلى التوحيد لله تعالى، وترك العادات والتقاليد والمظاهر، لأن الأخذ بها يؤدي إلى إضاعة الهدف الذي من أجله كانوا يعملون، ألا وهو تحقيق النصر والتفوق على المسلمين، وذلك يكون بالعلم والاحتفاظ بعاداتهم ومظاهرهم الخارجية، ولقد علموا أنهم لو أخذوا بمظاهر المسلمين الخارجية، فإن جهدهم سيضيع وسيزيد ذلك من انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية بين أجيالهم الناشئة.

---

[1] نفس المرجع والصفحة.

[2] الإسلام على مفترق الطرق، ص: 85.

ومع مرور الزمن، حصل تقهقر في العالم الإسلامي، وتزامن مع هذا التقهقر عمل الغربين الدؤوب على معرفة أسباب الهزيمة، ثم البحث عن سبل النصر، فسلكوا ما سلكوا من الطرق والأساليب، حتى نظروا كثيرا في التربية والتعليم، ثم علموا كما علم كل الناس أن التعليم هو العمود الفقري لأي تقدم منشود، فصاغوا لأنفسهم نظريات وفلسفات، بعضها سبقهم المسلمون إليها قرونا من الزمن، فاختاروا بعد ذلك لأنفسهم ما يلائم حضارتهم ومقوماتهم الثقافية والدينية والاجتماعية، وصدروا للعالم الإسلامي قشورا لا تفيد إلا في تحقيق المزيد من الهزيمة الروحية وتحقيق التبعية للغرب الذي بدأ يظهر منتصرا متفوقا متقدما، وسخر الغربيون لذلك –بشهاداتهم- نخبا سميت بالنخب التنويرية، ففعلت هذه النخب في مجتمعها العربي الإسلامي كثيرا مما كان يعجز عن فعله الغربيون.

لقد كان الغرب أكثر ذكاء حينما صدر برامجه التعليمية نحو بلاد المسلمين، خاصة ما يتعلق بمجرد القشور، وأما كون هذا التصدير الذي تغلف بغلاف الإصلاح لم يؤت أكله في مراحله الأولى، فلأن حامليه يومئذ لك يكونوا يدركون حجم الارتباط بين ما نقلوه وبين الفلسفة الموجهة له، فلماه استوعبت بعد ذلك الأجيال التي جاءت بعدهم، كان أثرهم حينئذ أشد وأنكى، بل أكثر عداوة لتراث أمتهم وتقاليدها، ومرة أخرى يقول جب: "وإذا رجعنا البصر من هذه المسافة أمكننا أن تعين بالضبط نقطة ضعف المصلحين الأولين، والسبب الأكبر لفشلهم، ذلك أنهم لم يدركوا أن الأنظمة الغربية التي رغبوا فيها ليست مجرد معالم تنظيم ظاهرية، وفاتهم أنها تعبير عن فلسفة خاصة تقوم على عادات قومية في التفكير نضجت ببطء خلال القرون (كذا) لتواتي حاجات وغايات نظام اجتماعي متباين النواحي"[1].

[1] المرجع السابق، نفس والصفحة.

ونلاحظ أن هذا الذي تخوف منه محمد أسد أن يحل بالتعليم في العالم الإسلامي، لم يكن مجرد مخاوف وتوقعات، وإنما كان واقعا، وكان العالم الغربي ومن ينفذ طموحاته من بني جلدتنا في عالمنا الإسلامي يخططون ليل نهار، ويعولون على هذا التعليم كثيرا، يقول جب: "إن أنظمة الغرب السياسية والاقتصادية لا يمكن أن تنقل وتنجح أي نجاح إلا إذا شعر الناس أنها تفي بالحاجة، ولا بد أولا أن يمهد لها السبيل بنظام في التعليم يتفق معها، ويستطيع أن يخلق الحاجة إليها، ويكون في نفس الوقت رأيا عاما مستنيرا راقيا يمكن أن يوكل إليه استثمار الأنظمة الجديدة، ولكي يتفق مثل ذلك في التعليم مع الأنظمة الجديدة لم يكم في طوقه أن يتفادى إدخال نظرة جديدة في الحياة وفلسفة جديدة تشبهان تينكم اللتين أوجدتا الأنظمة نفسها"[1].

خاتمة

إن بين الدولة القوية والتعليم الناجح صلة قوية ومتينة، فإذا أرادت الدولة أن تقوى شيئا فشيئا، فعليها أن تصلح التعليم الذي يمدها برجال صالحين وأفكار صالحة، وما لم تهتم الدولة بالتعليم، فلا يتوقع منها أي تقدم نحو الأمام.

ولما كانت هذه العلاقة المتينة بين الدولة والتعليم بهذا الحجم، كان لا بد من معرفة الرابط الذي يربط بينهما، وهو الهوية الدينة والثقافية، وفي عالمنا الإسلامي يجتمع ذلك الرابط في الإسلام الحنيف واللغة العربية، التي جاء بها هذا الدين ولا يفهم حق الفهم إلا بها، ولا ينتج العلم القوي المتين إلا بها، لذلك كانت أي محاولة للتقدم بهذه الأمة متمسكة بالإسلام واللغة العربية، وكانت في مقابل ذلك أي محاولة لتفتيت هذه الأمة، لا تتم إلى بفك هذا الرابط بين التعليم والدولة، فعلمنة الدولة أنتجت سياسة تعليمية تقود أجيالا بعد أجيال نحو الضياع والتفكك، والتخلف في جميع المجالات، كما أن العزل بين التعليم والهوية الثقافية والدينية واللغوية للأمة الإسلامية، أنتج كثيرا من المتعلمين الذين تخلوا عن هويتهم الحضارية، وسخروا من كل ما له علاقة بتاريخهم وتراثهم في الظاهر والباطن، في الوقت الذي لم يستطيعوا فيه اللحاق بالركب المادي للحضارة الغربية، التي لم تجد على مقلديها إلا بالقشور من كل ما تملك.

[1] نفس المرجع ص: 36.

ولقد عشنا مع الفيلسوف المستشرق المسلم محمد أسد لحظات ممتعة، استفدنا من خلالها من نظراته الثاقبة إلى العلاقة بين الحضارتين العربية والغربية، وذلك باعتباره واحدا ممن خبروا حق الخبرة حضارة الغرب أولا لأنه منها، والحضارة الإسلامية ثانيا لأنه تحول إليها بعد أن درسها فكرا ومعايشة، فكانت آراؤه مبنية على نظر عميق جدا.

ولهذا لا بد من أن نخرج بتوصيات مهمة، منها أننا لن نخرج من التيه في التربية والتعليم إلا بالرجوع إلى معين ثقافتنا وتراثنا ونعمل على تنميته وتطويره، كما أنه لا بد من الإصغاء إلى نصائح وتوجيهات بعض كبار المفكرين الغربيين الذين أسلموا، وذلك لأنهم يحملون زادا كبيرا من الخبرة بالفكر الغربي وحضارته، والفكر الإسلامية وحضارته. فهؤلاء المفكرون الكبار ينبغي البحث في كل ما صنفوه وكتبوه لأنه يعين على تنوير البصر والبصيرة معا.

قائمة المصادروالمراجع:

جب، هـ أ. ر. وجهة الإسلام نظرة في الحركات الحديثة في العالم الإسلامي، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، غفل من معلومات الطبع.

صفوت مصطفى خليلوفيتش، الإسلام والغرب- رؤية محمد أسد، ترجمه من البوسنية إلى الإنجليزية: محمد باشانيجوفتش، وترجمه من الإنجليزية إلى العربية: الدكتورة هدير أبو النجا، القاهرة، دار السلام، الطبعة الأولى، 2007.

محجوب عبيد طه، عقائد فلسفية خلف صياغة القوانين الطبيعية، مجلة المسلم المعاصر، العدد الرابع والستون، السنة السادسة عشرة، 1992.

محمد أسد، الإسلام على مفترق الطرق، ترجمة: الدكتور عمر فروخ، دار العلم للملايين، دون معلومات أخرى للطبع.

محمد أسد، الطريق إلى مكة، ترجمة رفعت السيد علي، مكتبة الملك فهد الوطنية، 1425هـ

محمد أسد، منهاج الإسلام في الحكم، ترجمة: منصور محمد ماضي، بيروت، دار العلم للملايين، الطبعة السادسة، 1983.